ألف حكاية وحكاية (٧٨)

متى أكمل دور الشطرنج ؟

وحكايات أخرى

تأليف
يعقوب الشارونى



رسوم
عادل البطراوى

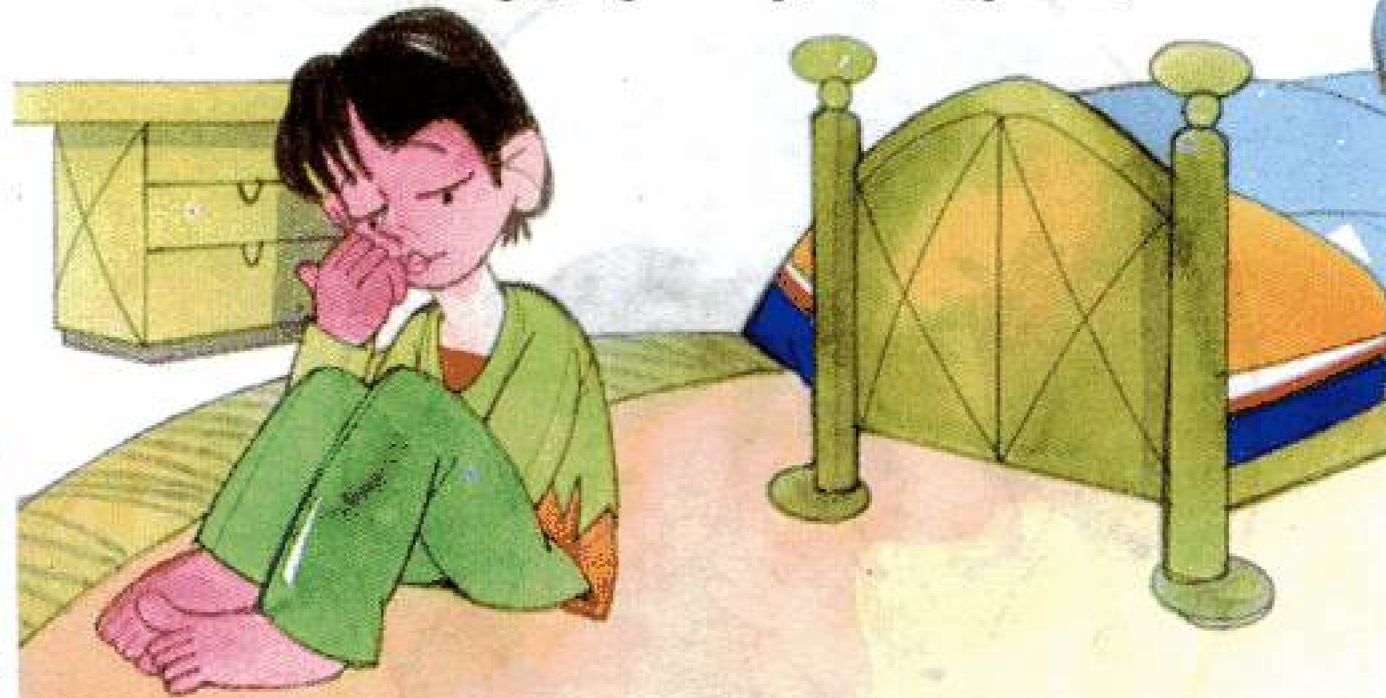
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى
الفجالة - القاهرة

متى أكمل دور الشطرنج ؟!

لم أكنْ قد شبعْتُ من النومِ ، عندما نزعَتْ والدتي الغطاءَ من فوقي في السادسةِ صباحًا.

حاولْتُ أن أجذبَ الغطاءَ ثانيةً فوقَ وجهي ، لكن ماما جذبَتْني هذه المرةَ من الفراشِ إلى الأرضِ.

جلسْتُ فوقَ السجادةِ وأنا مُغمضَ العينَيْنَ.



كنتُ قد سهرْتُ حتى الحاديةَ عشرةَ والنصفِ من مساءِ الليلةِ السابقةِ ، أحلُ عشرينَ مسألةَ حسابٍ متشابهةً ، وأكتبُ درسَ اللغةِ العربيةِ خمسَ مراتٍ ، والمرةُ الأخيرةُ كتبْتُهُ في ساعةٍ ونصفِ الساعةِ ، لأنني كنتُ أحسُ بنعاسٍ شديدٍ وضيقٍ أشدَّ لتكرارِ كتابةٍ لا أفهمُ ما يُبرِّرُها.

وكنْتُ قد حاولْتُ بعد عودتى عصرًا من المدرسةِ ، أن أجلسَ ساعةً أمامَ الكمبيوتر ، لأصلَ إلى نهايةِ دور الشطرنج الذى كنْتُ ألعبُهُ مع الشاشةِ ، لكن ماما قالَتْ لى: "العبْ بعد كتابةِ الواجبِ ، " والذى حدثَ أننى نِمْتُ فوقَ مكتبى قبل أن أنتهِيَ من الواجبِ.



أنا فى السنةِ الثالثةِ الابتدائيةِ ، واليومُ هو الأربعاءُ ، ومنذُ يومِ السبتِ الماضى لم أستخدمْ ألوانى ، ولم ألعبْ مع أختى بعرائسِ القفاز (الجوانتى) التى كنا نمثِّلُ بها القصصَ التى أقومُ بتأليفِها.

أنا تلميذٌ من السادسةِ صباحًا حتى منتصفِ الليلِ كلَّ أيامِ الأسبوعِ ، فمتى أشبعُ نومًا ، ومتى أرسمُ ، وأمثِّلُ بالعرائسِ ، وأكملُ دورَ الشطرنج مع الكمبيوتر ؟!!

أنا أشعرُ بشوقٍ شديدٍ إلى ألعابى !!

أين عروستى ؟!

فى أسفٍ ، حكَتْ لى ابنتى الواقعةَ التاليـةَ .. قـالَتْ: كنـتُ مُسافرةً بقطار الصعيدِ إلى جامعـةِ أسيوط. وبجـوارى جلـسَ أبٌ وزوجتُهُ وابنتُهما ، التى لا يتجاوزُ عمرُها أربعَ سنواتٍ.

كنـتُ مسـتغرقةً فـى القـراءةِ ، لكـنَّ صـراخَ الطفلـةِ وبكاءَها أرغمانى على الالتفاتِ إلى مـا يحـدثُ بينـها وبـينَ والديْها. كـانتِ الطفلـة تصـرخُ قائلةً: "أين عروستى ؟" والأبُ يضحكُ ويقولُ: "ابحثى عنها." وتبكى الابنةُ قائلةً: "أنا أريـد عروستى !" فتقولُ الأمُّ ضاحكـةً أيضًا: "بابا يلعبُ معَكِ .. ابحثى عنها."

وفهمتُ أن الأبَ أخذَ من ابنتِهِ لعبتَها وأخفاها ، ورغمَ شدةِ إلحاحِها عليه رفضَ إعادتَها إليها ، بل راحَ يستمتعُ برؤيةِ ثورةِ الابنةِ وصراخِها. وبعدَ وقتٍ ، نَسِيَتِ الطفلةُ عروستَها ، وبدأتْ تفتحُ كيسًا من الحلوى. وبسرعةٍ اختطفَ الأبُ الكيسَ من بينِ يدَيْها ، ووضعَ كلَّ ما به في فمِهِ وهو يضحكُ.

وعادَتِ الطفلةُ تصرخُ وتبكي ، والأبُ يقهقهُ ويقولُ: "لابد أن تعرفي الفرقَ بين اللعبِ والجدِّ !"

تقولُ ابنتي: لم أتمالكْ نفسي من أن أقولَ للأمِّ والأبِ: "الأطفالُ ليسوا لعبةً يتسلَّى بها الكبارُ!! إنكما تُفسِدانِ نفسيةَ ابنتِكما الصغيرةِ ، وتحطِّمانِ الثقةَ التي يمكنُ أن تقومَ بينكَما وبينَها."



امتحان تحت التهديد !!

حكى لى صديقٌ، قالَ: فى عربةِ مترو بمصر الجديدةِ، كنتُ أجلسُ وأمامى أمٌّ بجوارها ابنُها الصغيرُ، وقد فهمْتُ من حديثِهما أنه فى الرابعةِ الابتدائيةِ.

كانَتِ الأمُّ تراجعُ مع صغيرِها امتحانَ اللغةِ العربيةِ، الذى كانَ قد انتهى منه منذُ قليلٍ. قالَتْ له:



"ماذا كتبْتَ فى موضوعِ التعبيرِ؟ اذكرْ لى كلمةً كلمةً."

أجابَ الصغيرُ: "لا أتذكرُ!"



هنا انفجرَتِ الأمُّ تقولُ في تهديدٍ: "عندما نصلُ البيتَ، ستكتبُ الموضوعَ مرةً ثانيةً، وإذا كذبْتَ، ربُّنا سيُدخِلُكَ النارَ."

أجابَ الصغيرُ وفي عينَيْهِ كلُّ علاماتِ الرعبِ: "حاضر.. سأكتبُ!!"

وعادَتِ الأمُّ تنهالُ على ابنِها بالأسئلةِ، والصغيرُ يُجيبُ، ويُقسِمُ باللهِ العظيمِ بعد كلِّ إجابةٍ أنه صادقٌ، وإنْ جعلَهُ الرعبُ يتلجلجُ في الكلامِ ويكادُ يبكي.

وتمنَّيْتُ أن أطلبَ من تلك الأمِّ أن تكتبَ هي موضوعًا، وبعدَ ساعةٍ أطلبَ منها أن تُعيدَ كتابةَ نفسِ ما كتبَتْ كلمةً كلمةً، وأن تُقسِمَ صادقةً على ذلك.

أما أنت أيها الصغيرُ، الذي وقعْتَ فريسةَ تلك الأمِّ المريضةِ بالقلقِ، فكنتُ أودُّ أن أسمعَ منك كم أنت واثقٌ من نفسِكَ ومن نجاحِكَ، وأنك على استعدادٍ لأداءِ امتحانِ اليومِ التالي، مهما كانَتْ إجاباتُكَ في امتحانِ اليومِ السابقِ.

مع أن الكبار لا يعرفون كيف يرسمون !!

الصغيرةُ "ساندرا" تحبُ الرسمَ جدًا ، وترسمُ لوحاتٍ كثيرةً ، وتهتمُ أمُها برسومِها ، وتعلقُها في أنحاءِ البيتِ ، أو بقطعةِ مغناطيس على بابِ الثلاجةِ ، وكثيرًا ما تقولُ لها: "حتى الكبارُ لا يعرفونَ كيف يرسمونَ كما ترسمينَ يا ساندرا."



وفي المدرسةِ ، طلبَتْ مُدرِّسةُ التربيةِ الفنيةِ من ساندرا أن ترسمَ في البيتِ موضوعًا عن أعيادِ رأسِ السنةِ. وفي الحصةِ التاليةِ ، جاءَتْ ساندرا وقد رسمَتْ لوحةً جميلةً "للعمِّ عيد" يقدِّمُ عروسةً إلى طفلةٍ صغيرةٍ. وفوجئَتْ ساندرا بالمدرسةِ تقولُ لها في عنفٍ وتأنيبٍ:

"هذا ليس رسمَكِ . من المؤكَّدِ أن شخصًا كبيرًا رسمَهُ لكِ .. هذا غشٌ وعَيْبٌ."

وأصرَّتِ الصغيرةُ في عنادٍ على أنه رَسْمُها . واندفعَتْ تقولُ: "وأنا أستطيعُ أن أرسمَ نفسَ الرسمِ الآنَ ، على السبورةِ."

ووقفَتْ ساندرا أمامَ السبورةِ ، وهى لا تكادُ ترى بسببِ الدموعِ التى تملأ عينَيْها . وأعادَتْ رَسْمَ اللوحةِ بنفسِ تفاصيلِها ، بل وأجمل.

لكنَّ المعلمةَ تجاهلَتْ ما رأتْ ، وعادَتْ تقولُ فى لهجةٍ باردةٍ:

"الآن تعلَّمْنا أنه يجبُ ألا يرسمَ لنا رسومَنا أىُّ شخصٍ آخرَ."

وعادَتْ ساندرا إلى مكانِها فى الفصلِ ، ودموعُها تنحدرُ على خدَّيْها.



وفى البيتِ ، لاحظَتِ الأمُّ أن ساندرا تُصابُ فى يومِ الثلاثاءِ من كلِّ أسبوعٍ بآلامٍ فى المعدةِ ، ولا تذهبُ إلى المدرسةِ.

ثم تنَبَّهَتْ أن ذلك اليومَ هو يومُ درسِ التربيةِ الفنيةِ!!

نحن ... والحق فى التعبير !!

من خلالِ أنشطةِ مهرجانِ القراءةِ للجميعِ ، وفى لقاءٍ مع نادى الموهوبينَ ، بجمعيةِ المرأةِ والمجتمعِ فى منطقةٍ شعبيةٍ بالجيزةِ ، كنا نتحاورُ حولَ حقِّ الطفلِ فى التعبيرِ ، الذى أكَّدَتْ عليه الاتفاقيةُ الدوليةُ لحقوقِ الأطفالِ.

ووقفَتِ الصغيرةُ "سلمى صباحى"، وحكَتْ أنها كانَتْ تلعبُ فى حديقةٍ عامةٍ ، وبجوارها أحدُ الصغار يلعبُ بلعبةِ أطفالٍ على شكلِ مُسدَّسِ صوتٍ . وفوجِئَ الأطفالُ بجندِىٍّ ينقضُ على الصغيرِ ، ويسلِّمُهُ إلى أحدِ رجالِ الأمنِ ، الذى انهالَ على الصغيرِ صفعًا ، وانتزعَ منه اللعبةَ.

وتوقَّفَ الأطفالُ عن اللعبِ ، وقد ملأهم الاضطرابُ والخوفُ بسببِ ما أصابَ زميلَهم . لكنْ سلمى تشجَّعَتْ ، وتقدَّمَتْ إلى رجلِ الأمنِ تسألُهُ: "لماذا ضربْتَ زميلي ؟"

قالَ رجلُ الأمنِ: "لأن مُسدَّساتِ الصوتِ ممنوعةٌ .. إنها تُثيرُ الفزعَ بين الناسِ."

وعادَتِ الصغيرةُ تقولُ: "أنا أشاهدُ التلفزيون ، وأستمعُ إلى الراديو، ولم أسمعْ بهذا المنعِ. وقبلَ العقابِ وحرمانِنا من اللعبِ ، يجبُ أن نعرفَ ما هو الممنوعُ."

الغريبُ أن والدةَ سلمى كانَتْ تحضرُ الندوةَ معنا ، وصارحَتْني برأيِها قائلةً: "الحقيقةُ ، أنا أخشى على ابنتي من صراحتِها وشجاعتِها."

وسألْتُ نفسي: "هل نحن كمجتمعٍ ، نقلقُ كلَّ هذا القلقِ ، من استخدامِ حقِّ التعبيرِ عن النفسِ ؟!!"



همسة فى أذن نجم !!

داخلَ ستديوهات إحدى الشركاتِ الكبرى للسينما الأمريكيةِ. بمدينةِ "أورلاندو" بولايةِ فلوريدا الأمريكيةِ، وفى عرضٍ عامٍّ تقدِّمُهُ الحيواناتُ التى تشتركُ فى تمثيلِ الأفلامِ، تمَّ استدعاءُ طفلٍ فى التاسعةِ من عمرِهِ من بينِ المُتفرِّجينَ، ليقفَ على المسرحِ المُتَّسعِ.



ثم طلبوا منه أن يهمسَ فى أذنِ كلبٍ يعتبرونه من النجومِ، ويذكرَ له اسمَ قطعةٍ من ملابسِهِ، ليحضِرَ له الكلبُ مثلَها. وانحنى الطفلُ على أذنِ الكلبِ، ثم غادرَ الكلبُ المسرحَ.

وبعدَ لحظاتٍ عادَ الكلبُ يمسكُ قُبعةً صغيرةً حمراءَ، ما إن رآها الطفلُ، حتى أسرعَ يهزُّ رأسَهُ يمينًا ويسارًا، ليؤكِّدَ أن هذه ليسَتْ قطعةَ الملابسِ التى حدَّدَها.

عندئذٍ طلبَ المُدرِّبُ من الكلبِ أن يُصحِّحَ خطأَهُ.

واختفَى الكلبُ ، ثم ظهرَ ثانيةً وقد تدلَّتْ من بينِ أسنانِه قطعةٌ من ملابسِ السيداتِ.

وراقبَتُ الفتى الصغيرَ يحملقُ بدهشةٍ وذهولٍ فى هذا الذى أحضرَهُ الكلبُ ، وقد أحسَّ بالحرجِ الشديدِ ، فاحمرَّتْ وجنتاهُ ، وانطلقَ يلوِّحُ بذراعَيْهِ رافضًا بشدةٍ ما رآهُ.

وأثارَ ردُّ الفعلِ العنيفُ هذا من الطفلِ مئاتِ الحاضرينَ ، فانطلقَتْ قهقهاتُ ألفِ مُتفرِّجٍ من الكبارِ عاليةً ساخرةً !!



هنا اندفعَ الطفلُ يغادرُ المسرحَ مُتعثِّرًا ، وقد أدركَ ، فى أسفٍ ، أنهم استخدموه بغلظةٍ وفى قسوةٍ ، لمجرَّدِ تسليةِ جمهورٍ من المُتفرِّجينَ الكبارِ!!

البرلمان الصغير فى شارونة

علىٰ المسرحِ البسيطِ المُقامِ فى ساحةِ الوحدةِ المُجمَّعةِ ، التى تضمُّ عيادةَ الطبيبِ والمدرسةَ ومركزَ الرعايةِ الاجتماعيةِ والإرشادِ الزراعى ، قالَ عضوُ البرلمانِ الصغيرِ ، التلميذُ فى مدرسةِ شارونة الابتدائيةِ:

"لقد جاءَ إلى مدرستِنا سبعةُ مُديرينَ ، واحدًا بعدَ الآخر ، وتَسبَّبَ هذا فى عدمِ استقرارِ المدرسةِ ، وبطءِ متابعةِ احتياجاتِها."

وقالَ آخرُ: "ويتغيبُ عن المدرسةِ فى كلِّ يومٍ أكثرُ من ثلاثينَ تلميذًا."

وطلبَ الثالثُ الكلمةَ ، وقالَ: "وعندما يمرضُ أخى فى الليلِ، لا نجدُ الطبيبَ."

وأضافَ الرابعُ قائلاً: "وعدمُ نظافةِ طرقاتِ القريةِ ، يسبِّبُ كثيرًا من الأمراضِ."



استمعْتُ مع كلِّ أعضاءِ المجلسِ القرويِّ إلى هذا النقدِ، الذى يُوجّهُهُ الأطفالُ فى جرأةٍ وثباتٍ، فتقبّلَهُ الجميعُ، حتى قبلَ أن يقفَ مُمثّلُ الحكومةِ فى البرلمانِ الصغيرِ ويقولَ: "تمَّ اختيارُ مُدرّسٍ مُقيمٍ فى القريةِ، ليقومَ بأعمالِ الناظرِ، وبذلك سيتحقّقُ الاستقرارُ.. وغيابُ التلاميذِ مسئوليةُ كلِّ بيتٍ فى القريةِ. وإذا كانتِ المدرسةُ ينقصُها الكثيرُ حتى تجذبَ التلاميذَ، فنحن نعملُ على سرعةِ استكمالِ ما تحتاجُهُ المدرسةُ.. والطبيبُ لا يبيتُ فى الوحدةِ المُجمّعةِ، لأن مسكنَ الأطباءِ يحتاجُ إلى ترميمٍ، وسيتمُّ هذا قريبًا، فهى مسئوليةُ كلِّ فردٍ من أبناءِ القريةِ."

كانَ هذا المشهدُ الديمقراطىُّ، هو إحدى فقراتِ عيدِ الطفولةِ، الذى دعَتْنى قريتى إلى المشاركةِ فيه.

إن شارونة من قرى محافظةِ المنيا بالصعيدِ، وتقعُ شرقَ النيلِ، حيثُ تقلُّ الخدماتُ بسببِ ابتعادِ شارونه عن الطرقِ الرئيسيةِ التى تربطُ بينَ المحافظاتِ.

لكن ما أعمقَ التغييرَ الذى وجدْتُهُ قد وصلَ إلى كلِّ إنسانٍ، وما أكثرَ الحقوقَ التى تنبهوا إلى حقِّهم فى المطالبةِ بها!!



دموع طفل

فى لقاءٍ مع مُشرفاتِ الحضانةِ ورياضِ الأطفالِ ، كنا نتحدثُ عن ضرورةِ تجنُّبِ أسلوبِ التسلُّطِ والعقابِ فى علاقةِ الآباءِ بالأبناءِ.

وفى نهايةِ اللقاءِ . وقفَ صبىٌّ عمرُهُ عشرُ سنواتٍ ، جاءَ بصحبةِ والدتِهِ ، وطلبَ أن يسألَ سؤالاً.

ثم تركَ مكانَهُ بجوارِ والدتِهِ ، وجاءَ إلى جانبى على المنصةِ ، وقالَ بصوتٍ شبهِ هامسٍ: "هل توافقُ على ما يفعلُهُ والدى ؟ إنه بمجرَّدِ أن تنتهِىَ الدراسةُ ، وتبدأُ العطلةُ الصيفيةُ ، يُحضِرُ لى الكتبَ المدرسيةَ للسنةِ القادمةِ ، ويطلبُ منِّى أن أبدأ المذاكرةَ للعامِ الجديدِ ؟!"

ثم اختنقَ صوتُهُ بالبكاءِ.

والتفتُّ إليه ، فوجدتُ الدموعَ تملأُ عينَيْهِ وتنحدرُ على وجهِهِ ، احتجاجًا على هذا الأسلوبِ المُتشدِّدِ الذى يمارسُهُ والدُهُ ، وقد تصوَّرَ أن الموادَّ المدرسيةَ هى الشىءُ الوحيدُ الجديرُ بالاهتمامِ فى حياةِ ابنِهِ ، مُتناسيًا أن هناكَ آلاف الخبراتِ التى يجبُ أن يتعرَّفَ عليها الأطفالُ إلى جانبِ ما يوجدُ فى الكتبِ المدرسيةِ : من قراءاتٍ خارجيةٍ للقصصِ وكتبِ الثقافةِ العلميةِ ، وألعابٍ رياضيةٍ وذهنيةٍ ، وممارسةِ الفنونِ من رسمٍ وموسيقى وتمثيلٍ ، والذهابِ فى رحلاتٍ ، وزياراتٍ إلى المتاحفِ ، وقضاءِ أوقاتٍ فى صحبةِ الزملاءِ والأصدقاءِ ، أو فى المكتباتِ وقصورِ الثقافةِ والنوادى والساحاتِ الرياضيةِ.